



إقرار مجلس الأمن خطة المبعوث الدولي إلى سوريا ستيفان دي ميستورا تطوي عملياً صفحة بيان جنيف الأول. والممثلون الذين سيشكلون اللجان الأربع في الخطة يقود منطقياً إلى طي صفحة «الائتلاف الوطني». لن يعود له الثقل السياسي الذي كان أو الذي يطمح إليه. النظام سيختار ممثليه. والائتلاف سيختار ممثليه. وسيكون هؤلاء جزءاً من فريق المعارضة الذي سيضم أيضاً مندوبيين من «هيئة التنسيق» و«مؤتمر القاهرة». ودي ميستورا سيختار ممثلي تنظيمات المجتمع المدني (النقى 38 منهم!).

والنتيجة أن ممثلي أطياف المعارضة مجتمعة لن تكون لهم الغلبة في اللجان. الجميع سيكونون هامشيين. ليس هذا مؤشراً إلى مآل الائتلاف فحسب. المفاوضات التي دارت بين إيران وأحرار الشام» في تركيا لتسوية قضية الزيداني والفوعة وكفريا (ريف إدلب) كشفت ضعفه. كان يفترض أن يكون وليس العسكر شريكاً أو الطرف الذي يجلس بمواجهة ممثلي طهران. علماً أن «الأحرار» ليسوا الكتلة الأكبر التي تقاتل غرب دمشق. يعني ذلك ببساطة أن المُضيف التركي كان في مواجهة إيران. النظام لم يسلم وحده القياد إلى حليفه التفاوض، المعارضة السياسية أيضاً سلمت كرسيها عن طيب خاطر أو مرغمة إلى الفصيل العسكري الذي ترعاه أنقرة.

هذه الصورة لا تكشف وحدها انتقال القرار السوري إلى الخارج. للمرة الأولى منذ أربع سنوات يبدو جميع المعنيين الإقليميين والدوليين بالأزمة السورية منخرطين في البحث عن تسوية. هذه هي القراءة الحرفية لقرار مجلس الأمن. جميعهم يرون مصلحة في إطلاق قطار «جنيف 3»، مع اختلاف بين جملة المصالح. والتصعيد الذي يشهده مسرح العمليات ترجمة واقعية لرغبة كل طرف في تعزيز موقعه وكسب مزيد من الأرض، تعزيزاً لموقفه من المفاوضات التي يفترض أن تطلق بعد تشكيل اللجان الأربع المنصوص عليها في خطة المبعوث الدولي. لكن تركيبة اللجان ومسار التسوية لا يسمحان بهامش

للمناورة لطرف دون آخر. لذا لن تكون للأطراف السورية المتصارعة الكلمة الفصل في نتيجة الصفقة وصورتها النهائية. «جنيف 3» سيكون مؤتمراً لللتقط الصور التذكارية. سيعقد فقط بعد نحو ثلاثة أشهر للتوقيع على ما سيقره المؤتمر الوطني الذي سيكون عليه الموافقة على ما توصلت إليه اللجان في خلال ثلاثة أشهر تبدأ بعد بضعة أيام.

ثمة رغبة خارجية في فرض صيغة الحل. إدارة الرئيس باراك أوباما جددت تكليف روسيا رعاية المسيرة. لم يعد يعنيها الكثير من الساحة الشامية. انتزعت من إيران تجميد البرنامج النووي. وأرغمت دمشق على تسليم ترسانتها الكيماوية. ولم تعد سوريا تشكل خطراً أو تحدياً سياسياً أو عسكرياً لصالح مبادرة الولايات المتحدة. بل ربما كانت هناك مصلحة أميركية في مزيد من تفتت المشرق العربي، عندها تسهل ولادة النظام الجديد في الإقليم وفرضه على ما يبقى من آثار دول وجيوش مجتمعات في المنطقة. بل عندها تسهل إعادة رسم الخريطة برمتها.

هذا على الورق، كما يقال، لكن الواقع على الأرض السورية من التعقيد ما يجعل مهمة المبعوث الدولي شبه مستحيلة. أول التحديات ليست الرغبة الدفينـة لكل طرف في إلغاء الآخر وتحقيق انتصار نهائـي حاسم، وهو ما سيترجم بشدةً وعنادـاً. أول التحديات هو أن التسوية ستستغرق وقتاً طويلاً بطول الحرب التي يستدعيها قتال «الدولة الإسلامية» واحتواها ثم القضاء عليها. «داعش» والفصائل المتشددة التي تتحسـس رأسـها بعد كل حديث عن تسوية لن تقف مكتوفـة. وهي بدأت التحرك لتحقيق مكاسب جديدة على الأرض، وإعادة تموـض في جـهـات ومحـاورـ. ليس هذا التحدـي الوحـيد.

روسـيا التي أخذـت على عاتـقـها إقناع إـیران بـتأـیـید بـیـان جـنـیـفـ، لا تـبـدو قادرـة على اـنـتزـاع مـثـلـ هذا التـأـیـیدـ. وـمـرـدـ ذـلـكـ أـسـاسـاًـ إـلـىـ صـرـاعـ الطـرـفـينـ عـلـىـ سـوـرـيـةـ. قد تكون مـوـسـكـوـ مـسـتـعـدـةـ فـيـ النـهـاـيـةـ لـلـتـخـلـيـ عـنـ رـأـسـ النـظـامـ فـيـ دـمـشـقـ ضـمـنـ شـرـوطـ وـظـرـوفـ لاـ تـظـهـرـ فـيـهاـ مـظـهـرـ الـمـوـافـقـ عـلـىـ تـغـيـيرـ الـقـيـادـةـ بـإـرـادـةـ خـارـجـيـةـ. منـ هـنـاـ تـشـدـيـدـهاـ عـلـىـ أـنـ مـسـتـقـبـلـ الرـئـيـسـ بـشـارـ الأـسـدـ رـهـنـ الـحـوـارـ بـيـنـ السـوـرـيـيـنـ وـهـدـهـمـ. فـيـ حـيـنـ أـنـ إـیرـانـ لـاـ تـبـدـيـ مـثـلـ هـذـاـ الـاستـعـدـادـ. بلـ هـيـ تـطـرـحـ صـيـغـةـ لـلـحلـ تـنـتـهـيـ بـتـرـسيـغـ بـقاءـ الرـئـيـسـ الأـسـدـ فـيـ ظـلـ حـكـومـةـ وـحدـةـ وـطـنـيـةـ تـعـطـيـ الـمـعـارـضـةـ مـكـاسـبـ لـاـ تـرـقـيـ إـلـىـ حدـودـ التـغـيـيرـ البـسيـطـ!

مـوقـفـ إـیرـانـ النـهـائـيـ سـيـتـحـکـمـ بـنـتـائـجـ الـخـطـةـ الـدـولـيـةـ. وـالـحـالـ أـنـ خـصـومـ طـهـرانـ يـتـهـمـونـهاـ الـيـوـمـ، عـلـىـ وـقـعـ ماـ يـجـريـ فـيـ الزـبـدـانيـ وـالـغـوـطـيـنـ، بـأنـهاـ تـدـفعـ بـمـشـرـوعـ التـقـسـيمـ قـدـماـ. يـسـتـنـدـونـ إـلـىـ الشـرـوـطـ الـتـيـ سـاقـتـهاـ لـوـفـدـ «ـأـحرـارـ الشـامـ». تـرـيدـ دـمـشـقـ وـالـغـوـطـيـنـ وـالـزـبـدـانيـ وـالـقـلـمـونـ مـنـاطـقـ صـافـيـةـ لـلـنـظـامـ. تـجـهـدـ لـتـغـيـيرـ دـيمـوـغـرـافـيـ يـضـمـنـ لـلـنـظـامـ الـاحـفـاظـ بـالـعـاصـمـةـ وـبـالـحـدـودـ الـتـيـ تـرـبـطـهـ بـلـبـنـانـ. هـذـاـ التـغـيـيرـ اـتـهـمـهـاـ بـهـ خـصـومـهـ فـيـ عـرـاقـ أـيـضاـ. أـخـذـ أـهـلـ السـنـةـ عـلـىـ قـوـاتـ «ـالـحـشـدـ الشـعـبـيـ»ـ الـتـيـ تـقـاتـلـ «ـدـاعـشـ»ـ بـأـهـمـ يـعـتـمـدـونـ، كـمـ الـقـوـاتـ السـوـرـيـةـ النـظـامـيـةـ، خـطـةـ الـأـرـضـ الـمـحـرـوـقـةـ لـلـسـيـطـرـةـ عـلـيـهاـ لـاحـقاـ بـعـدـ تـرـحـيلـ سـكـانـهاـ.

إـنـ انـخـرـاطـ إـیرـانـ فـيـ مـثـلـ هـذـاـ الـمـشـرـوـعـ فـيـ كـلـ بـلـادـ الشـامـ يـعـنـيـ أـنـهاـ قـادـرـةـ عـلـىـ اـبـلـاعـ جـزـءـ مـنـ الـعـالـمـ الـعـرـبـيـ. فـيـ الـمـبـدـأـ يـصـعـبـ أـنـ تـتـغلـبـ الـجـمـهـورـيـةـ الـإـسـلـامـيـةـ عـلـىـ هـذـاـ الـعـالـمـ بـهـذـهـ الـبـساطـةـ، أـوـ تـهـيـمـ وـبـطـسـ سـيـطـرـتـهاـ وـنـفـوذـهاـ بـلـ رـادـعـ. فـلـاـ الجـفـرـافـيـاـ وـلـاـ دـيمـوـغـرـافـيـاـ وـلـاـ القـوـةـ الـعـسـكـرـيـةـ وـلـاـ الـكـتـلـةـ الـاـقـتـصـادـيـةـ تـتيـحـ لـهـاـ مـثـلـ هـذـاـ الـطـمـوـحـ، إـذـاـ كـانـ رـاغـبـةـ فـيـ ذـلـكـ. هـذـاـ فـيـ مـنـطـقـ مـواـزـيـنـ الـقـوـىـ الـتـيـ بـيـنـ عـنـاصـرـهـاـ أـيـضاـ كـتـلـةـ الـعـالـقـاتـ وـالـمـصـالـحـ الـتـيـ تـرـبـطـ الـعـربـ بـالـخـارـجـ بـعـيـداـ وـقـرـيـباـ، وـكـفـةـ هـذـهـ رـاجـحـةـ لـمـصـلـحةـ الـعـربـ. لـكـنـ هـذـاـ الـمـيـزـانـ أـصـابـهـ كـثـيرـ مـنـ الـخـلـلـ، مـنـ خـرـوجـ الـعـرـاقـ مـنـ الـحـسـابـ، إـلـىـ الـأـزـمـةـ الـكـبـرـىـ فـيـ سـوـرـيـةـ وـالـاسـتـعـصـاءـ السـيـاسـيـ فـيـ لـبـنـانـ. فـضـلـاـ عـنـ سـقـوـطـ عـدـدـ آـخـرـ مـنـ الـدـوـلـ الـعـرـبـيـةـ فـيـ حـرـوبـ أـهـلـيـةـ أـوـ مـاـ شـاـبـهـهـاـ.

لـاـ جـدـالـ فـيـ أـنـ إـیرـانـ أـفـادـتـ مـنـ هـذـهـ الـظـرـوفـ لـتـمـدـ نـفـوذـهاـ فـيـ الـمـشـرـقـ الـعـرـبـيـ وـأـطـرافـ أـخـرىـ فـيـ شـبـهـ الـجـزـيرـةـ الـعـرـبـيـةـ. سـاعـدـهـاـ فـيـ ذـلـكـ لـيـسـ قـوـتـهاـ الـعـسـكـرـيـةـ أـوـ الـاـقـتـصـادـيـةـ بـقـدرـ مـاـ سـاعـدـتـهـاـ التـدـاعـيـاتـ الـتـيـ خـلـفـتـهاـ «ـغـزوـتـاـ نـيـوـيـورـكـ وـوـاشـنـطـنـ»ـ. جـنـتـ ثـمـارـ الـحـرـوبـ الـاسـتـبـاقـيـةـ الـتـيـ شـنـتـهـاـ إـدـارـةـ جـورـجـ بوـشـ الـإـنـ. كـسـبـتـ فـيـ أـفـغـانـسـتـانـ وـثـأـرـتـ مـنـ «ـطـالـبـانـ»ـ. وـورـثـتـ فـيـ الـعـرـاقـ مـاـ كـانـ نـظـامـ الـبـعـثـ يـحـرـمـهـاـ مـنـهـ. وـسـاـهـمـ ذـلـكـ فـيـ تـفـلـغـهـاـ فـيـ سـوـرـيـةـ الـتـيـ بـاـتـ نـظـامـهـاـ فـيـ السـنـوـاتـ الـأـرـبـعـ الـأـخـرـىـ يـعـتـمـدـ

اعتماداً كبيراً على مساعداتها العسكرية والمالية لترسيخ بقائه. واعتمدت على حلفاء ومجموعات وميليشيات تلتقي معها إما في الإيديولوجيا أو المذهب أو السياسة. وقد يعطيها الاتفاق النووي دفعه لتجديد حلمها في السيطرة، بعدها كانت العقوبات في السنوات الأخيرة تهدده بالانكماس والضمور... إلا إذا تغلب التيار الإصلاحي على منافسيه رافعي شعار الامبراطورية. لكن السؤال هل يمكن إيران فعلاً أن تمسك ببلدان مشتعلة تستنزف قواها وثرواتها؛ ألا تعتبر من التجربةsovietية ليكون الأجدى أن تتماهي مع الموقف الروسي بدل أن تفرد وحيدة؟

إذا اختارت إيران فعلاً تقسيم سوريا، ونالت حصة كبرى في صيغة محاصصة على غرار ما في العراق، عليها أن تخوض على الأرض حرباً طاحنة. حملة التغيير demografique في الزيداني والغوطتين لن تكون كافية. الاحتفاظ بالأراضي التي باتت جزءاً من «الامبراطورية الفارسية» تستدعي إعادة رسم الحدود في بلاد الشام. توفير سهولة التواصل بين هذه الأراضي، من المتوسط إلى حدود أفغانستان، لا يوفره تغيير ديموغرافي يطاول دمشق وريفيها وغربها فحسب. إذا تحقق لها ذلك، لا بد لاحقاً من صدام واسع مع «الدولة الإسلامية» في سوريا والعراق. لا بد من طردها من تدمر لإعادة فتح الطريق بين دمشق وبغداد عبر معبر البوكمال، ومنه الانطلاق في الصحراء الغربية من ريف حمص إلى الرمادي ومحافظة الأنبار، للإمساك بمنطقة توفر التواصل بين العاصمتين العربيتين. وتتوفر التواصل بين الساحل العلوي وملحقاته في حمص وحماء. ولن تكتفي بذلك، يستدعي المشروع ملحقات أولها توسيع التواصل بين الكتلة الشيعية في لبنان والعلوية في الساحل عبر تغيير ديموغرافي قد لا يقتصر على شمال البقاع بل ربما شمل شمال لبنان!

هذا مشروع إمبراطوري ضخم يتناهى رافعه لوائه حقائق ووقائع. فلا إيران بهذه القدرة وهذا الجبروت، لا عسكرياً ولا اقتصادياً. ولا العالم العربي رفع الراية البيضاء. هو حاضر في سوريا والعراق ولبنان. ولا تركياً غائبة. ولا المجتمع الدولي سيلزم الصمت، هو المتهم بتعيم الفوضى الخلاقة لتقسيت المنطقة وإعادة تشكيلها على قياس مصالحه. وهل يمكن إيران أن تقيم خريطة عجز عنها أصحاب الأفكار من القوميين العرب إلى البعثيين والقوميين السوريين وغيرهم؟ هل تستطيع أن تهضم هذا الخليط من الطوائف والمذاهب والأعراق ومصالحه في المشرق العربي وتفرضه؟

رضخت إيران تحت ضغوط العقوبات والحصار، وقدمت ما يجب أن تقدم لتسوية ملفها النووي. ولو كانت بهذه المقدرة الخيالية لما كانت تخلت عن الحوثيين. ولما تخلت عن نوري المالكي. وهي اليوم تقبض على الجمر في العراق حيث يواجه رجالها قوى لا يستهان بها من المرجعية الشيعية العليا إلى قوى شيعية كثيرة فضلاً عن السنة و... «داعش». والمحك الآن ليس المسار السياسي في سوريا وحدها.

المؤشر على موقف إيران وقدرتها ما سيؤول إليه مشروع الإصلاح الذي ينادي به العراقيون ويقوده حيدر العبادي بدلاً من المحاصصة القاتلة. فإذا نجحت في إطاحته لن تكون لها حصة تشارك فيها العرب فحسب، سيعود شبح التقسيم خياراً ثقيلاً على العراق. وهذا ما حذر منه المرجع الأعلى السيد علي السيستاني. وهذا ما نادت به دولتان أميركيتان. مثل هذا المآل لن يقف عند حدود بلاد الرافدين. سيكون مقدمة لإعادة رسم خريطة المشرق العربي كلها. يعني ذلك أن مستقبل خطة دي ميستورا رهن بما يجري في العراق أيضاً حيث «المعركة» الأقرب، وإن كيف ستنتهي الحرب على «داعش»؟

المصادر: